قصة حشاش

للقصاص الشاب محمد أبو المعاطى أبو النجا

كان الليل يوشك أن ينتصف حين خرج « حسن العبد » من دار « عوضين » بعد أن قضى سهرته المعتادة بدخن الحشيش ويشرب الشاى ويتبادل مع الجالسين أطرف النوادر وأعذب النكات ! وكاد أن يقع على الأرض حين اصطدم بكومة سباخ فى جانب الطريق لم يتبينها أثناء سيره المضطرب . . والواقع أن الظلام الكثيف الذى كان يجثم على القرية، والموضوع الدقيق الذى كان يشغل فكره منذ خرج من دار عوضين، أو بعبارة أدق منذ خرجت « درية » من الحجرة التى كانوا يجلسون بها وهى ترمقه خلسة بنظرتها الساحرة الفاترة تلك التى تشيع الحذر فى أوصاله والنشوة فى خواطره !

الواقع أن كل ذلك كان يمنعه من أن يستبين طريقه وأن يتعرف مواطىء قدميه .. وماذا تكون كومة السباخ ؟

بل ماذا يكون اصطدامه بها بالنسبة للموضوع الشائك الذى يفكر فيه ؟

إنه يريد أن يطلق زوجته « حميدة » . هذا ما عول عليه ... أخيرا. وهل تستطيع الآن أية قوة أن تمنعه من ذلك !

لقد سئم الحياة مع هذه المرأة الثرثارة المشاكسة.. تلك التى تجعله يشك فى حقيقة رجولته . . أجل . . إنه يشك فى ذلك فما معنى كونه رجلا ؟ وما معنى كونه رب عائلة ؟ ما دامت هى تدس أنفها الطويل فى كل شئ . فهى مثلا لا تفتأ تسأله كلما عاد متأخرا فى المساء . . أين كنت تسهر ؟ ومع من ؟ كأنها أبوه . . وكأنه لا يزال طفلا !

لطالما افتق لها الأكاذيب .. وقال — كنت فى دوار العمدة .. وكان يكفى هذا الرد البسيط لكى يلجم لسانها الطويل .. !

فكل ما تتمناه « حميدة » أن يسهر زوجها فى خدمة العمدة .. أليس العمدة هو صاحب الأرض التى يزرعها « حسن العبد » ؟ أليست خدمة الملاك هى أولى واجبات الزراع . . ؟

ثم مالها هى وشؤون الغيط ؟ إنها تدفعه إليها دفعا وتهتم بكل صغيرة و كبيرة فلا يدرى أهو زوجها حقا أم أنه أجير لديها ؟

إنه لا يفهم الرجولة إلا أن تكون كلمته هى النافذة ورأيه هو المطاع . وإلا أن تستجيب هى لكل أوامره دون أن تعترض . !

وهو إن صبر على ذلك فلن يصبر على أمر آخر كثيرا ما ضاق به وأثار فى نفسه مشاعر الغيظ المكتوم والضيق المختنق. لماذا تحاول دائما أن توقظه قبل الفجر لينهض للصلاة وراء الشيخ « شحاته » مؤذن المسجد ؟ أعنى فى نفس الوقت الذى يجمل فيه النوم وتطيب الأحلام .. إنه يعرف أن النساء ناقصات عقلا ودينا، مع ذلك من الواعظ مرارا وهو يزور القرية . فهل تحاول امرأته أن تكذب كلام الواعظ ؟ ولماذا لا يكون لتلك اللعينة مآرب آخر تستره وراء ذلك الادعاء الفارغ المكذوب . . ! لا لا . . لم يعد أن يحتمل ذلك كله . . وأن يواصل سلسلة الأكاذيب التى يلقاها بها كل مساء ليربط فيها لسانها الطويل ..

سوف تسأله كعادتها

— أين كنت تسهر ؟ وفى هذه المرة سيرد عليها بعنف

— وما شأنك بى ؟ سوف تثور وإذ ذاك يقطع ثورتها بكلمته الحازمة — أنت طالق . !

وترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة مزهوة لا تلبث أن تستحيل إلى ضحكة مجلجلة سرعان ما تتناثر أشلاؤها على صخور الصمت الملقاة هنا وهناك فى شعاب الليل الرهيب ..

وتبقى نفس الابتسامة العريضة المزهوة مرتسمة على شفتيه. إنها تزف الى خياله صورة رائعة .. تلك هى صورة « درية » .. درية .. أخت « عوضين » وأرملة الشيخ محجوب .. لقد مات منذ عام فورثت عنه فدانين هما من غير شك للسعيد الذى يظفر بها .. درية بثيابها الطويلة الجميلة تلك التى تضيق وتتسع تلبية لرغبات الجسد البديع الفاتن .. وضفيرتيها المنسدلتين وقد تدلتا على صدرها فى مجون كأنهما يدا عاشق .. وصوتها .. أجل صوتها المتصمغ بمطر الأنوثة .. الأنوثة التى ظلت فى دنان الزمن عاما كاملا حتى عتقت ؟؟

إنه يحس لتلك الرؤى الجميلة بنشوة عذبة تجعله يغرق في الضحك ومن جديد يبتلع الليل صدى ضحكاته وتبقى نفس الابتسامة المريضة المزهوة ... إنها تزف صورة إلى خياله . صورة درية في وضع آخر في بيته ... ما أجمل أن تصبح درية زوجته ! وما ألذ أن يعمى هذا الجسد الطاهر طوع يديه !!

وهنا وبالرغم عنه تتراءى في مخيلته صورة زوجته « حميدة » بجسدها الأعجف النحيل الذي يشبه عود الذرة اليابس ، وفمها المتشقق المزيل الذي يشبه ورقة التوت الذابلة ... وثيابها القذرة التي تكنس فيها الدار وتكسح الزريبة وتمضي إلى الحقل ..!!

لشد ما يكرهك « يا حميدة » أنت أيتها الثرثارة الشخوب ..

ويهز رأسه في ضيق وكأنه يريد أن ينتزع منه تلك الصورة البغيضة ...!!

وكأنما تحرر خياله من تلك الصورة فتراءت له « درية » من جديد ...

وهي تخطر في أنحاء داره بخطوات كلها دلال وجمال وترنو إليه بعيون كلها إغراء وفتنة وتضحك له بصوت كله عذوبة وسحر ..

ولا يكاد يمضي في طريق الأحلام خطوات قصارا حتى يقف ... لقد استوقفه خاطر سخيف ملح ... ذلك الخاطر الذي يصور أقاربه وأصحابه ، وهم يسألونه في لوم وتأنيب :

كيف تطلق زوجتك ؟ وأبناؤك . . من غيرها تربيهم وترعى شؤونهم ؟

حقا أنى له أن يقنع هؤلاء بأنهم مخطئون ... أنى له ذلك وهم لا يعرفون شيئا عن تلك المعاملة القاسية التي تعاملهم بها تلك الأم الحنون . . ليتهم ينظرون إلى أثوابهم التي تضج بالرقع حتى لكأنها ثياب المتسولين . . . لطالما قال لزوجته إنه سيشتري لأولاده ثيابا جديدة ، ولكنها كانت تقول له . . . إن النقود التي معك سنحتاجها نحن فيما هو أهم . سنشتري بها أذرة فمحصولنا لا يكفي طيلة العام . أما ثياب الأولاد فسوف أرتقها أنا ... وهكذا لا يهدأ لها بال حتى تملأ ذلك المخزن الطيني الذي صنعته بنفسها فوق السطح لتخزن فيه الحبوب . . . يا لها من امرأة مشاغبة ملحاح تكاد تكفر بالله . ألا تؤمن تلك العجوز الطامعة بأن الأرزاق على الخلاق ..!!

لا ، لا يمكن . إذن أن يلقي بالا إلى هؤلاء الأقارب والأصحاب مهما ألحوا وألحفوا ..!

ودار مع الطريق الموصل إلى بيته .. ودار بخياله هذا الخاطر : لو كانت « درية » هي الآن زوجته ، أكانت تسأله أين كنت تسهر ؟ وكان الجواب شعورا بالسعادة يخالطه شعور بالأسف

ونظر قبالته فرأى ضوءا ينبعث من دهليز داره : . هذا الضوء الذي يلقي في روعه بأن زوجته مازالت تنتظره . . لشد مايمقت هذا الضوء ومايرمز إليه من معان ..!

وفجأة تذكر شيئا غاب عن خاطره تذكر أنه وعد « زكي السواح » بزيارته هذه الليلة . ولكنه لم يذهب .. ترى ماذا سيقول عنه « زكي » وعن مواعيده ؟ وتساءل ماذا لو ذهبت إليه الآن ! ولكنه مضى في طريقه من جديد حين تذكر أن صاحبه لا يسهر حتى هذه الساعة من الليل ..!

وتلكأ في خطواته حين أخذ يشغل خواطره هذا السؤال الغريب المريب ..

ماذا يقول للناس حين ينكرون عليه أنه طلق زوجته من أجل ذلك السبب الضعيف الواهي ..؟ زوجة تسأل زوجها أين كان .. ماذا في ذلك ؟ لاشيء مطلقا يستدعي الطلاق . أما كان الأوفق أن ينتظر حتى يحدث بينهما شيء آخر ذو بال ، وما أكثر مايحدث بينهما من أسباب الخلاف ودواعيه ؟

وضاق ذرعا بهذا السؤال وجعل يتلوى في جنبات الطريق كأنما أراد أن يهرب منه ..

ولم يكد يقترب من الباب حتى أحس بموجة حماس مفاجئة جعلته يطرق الباب بعنف لم يكن يعادله إلا دقات قلبه ..

وحين انتهى إلى سمعه صوت زوجته وهي تقول بنبرة جافة كأنها الصراخ :

— مين ؟

أحس كأن قلبه يترنح في صدره ويتخبط في أضالعه ...

وانفرج الباب عن وجه حميدة المتقلص المغضوب وانفرجت شفتاها اليابستان عن هذه الكلمات الخانقة ...

— وهذه الليلة أيضا ... أين كنت تسهر ... ؟

ومضت فترة صمت طويلة قبل أن يجيب حسن العبد في هدوء متخاذل ...

— كنت في دوار العمدة ... !!

محمد أبو المعاطي أبو النجا